

من أسباب صلاح السريرة

إن الله ﷻ بفضلِهِ ورحمته إذا علم من عبده الصدق في طلبه وحرصه على إصلاح سريرتِهِ وتنقيتها من الشوائب، وفقه ﷻ إلى الوسائل التي تصلح بها القلوب والسرائر، وأعانهُ على الأخذ بها، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:

الوسيلة الأولى:

دعاء الله ﷻ والتضرع بين يديه في أوقات الإجابة لإصلاح السريرة وتنقية القلب من مفسداته، وهذه الوسيلة من أعظم وسائل إصلاح السرائر، حيث لا يملك القلوب وتثبيتها وإصلاح فسادها إلا الله ﷻ، فهو ﷻ مقلب القلوب ومصرفها، وهو المتفضل بالإيمان واليقين وزيادتهما، فالمتعين على المؤمن التوجه إلى الله ﷻ وحده، وسؤاله ذلك منه وحده، فلا مثبت إلا من ثبته الله، ولا محفوظ إلا من حفظه الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، والمخذول من خذله الله.

يقول مطرف بن عبدالله بن الشخير رحمه الله تعالى:
(تذاكرت ما جماع الخير. فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة، وإذا
هو في يد الله ﷻ، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله، إلا أن
تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير في الدعاء) (١).

وهذا هو هدي نبينا محمد ﷺ أكمل البشر إيماناً وهدى
وصلاحاً، وهو رسول الهداية والنور، ومع ذلك كان كثيراً ما
يدعو بطلب الهداية والسداد، وتثبيت القلوب وسلامتها
وإصلاحها وتطهيرها من أدناسها، وهكذا شأن أتباعه
والمحبين له ولستته، ومن أشهر الأدعية النبوية في هذا الشأن
ما يلي:

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا
على طاعتك» (٢).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم اهدي وسددي، اللهم إني أسألك
الهدى والسداد» (٣).

(١) الإبانة، لابن بطّة: (٢/ ١٩٥).

(٢) مسلم: (٢٦٥٤).

(٣) مسلم: (٢٧٢٥).

■ قوله ﷺ في دعائه: «رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجتي، واسلل سخيمة قلبي»^(١).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»^(٢).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخري التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»^(٣).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم حَبِّبْ إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرهْ إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين»^(٤).

(١) أبو داود: (١٥١٠)، والترمذي: (٣٥٥١) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٣٤٨٥).

(٢) مسلم: (٢٧١٧).

(٣) مسلم: (٢٧٢٠).

(٤) أحمد: (٤٢٤ / ٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (٢٣ / ٣).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»^(١).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسأل من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»^(٢).

الوسيلة الثانية:

معرفة الله عز وجل وتعظيمه وإجلاله ومحبته بمعرفة أسمائه الحسنی وصفاته العلی ولا سيما أسمائه ﷻ (السميع، البصير، الرقيب، الشهيد، العظيم، الكبير، الخبير، اللطيف، الرحيم، العزيز، الرحمن، الرحيم، الظاهر، الباطن، الغني، الكريم)، والتي تثمر في القلب خشية والخوف والرجاء، والمحبة والتعظيم والإجلال، والتوكل والتسليم لأوامره ﷻ.

(١) النسائي: (٥٤ / ٣)، وصححه الألباني في صحيح النسائي: (١٢٣٧).

(٢) النسائي: (٥٤ / ٣)، وأحمد: (١٢٥ / ٤) ورجال أحمد ثقات، ورواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب سؤال الثبات في الأمر.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (فإن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته وجمع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلى وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلاً به سروراً ومحبة... وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرَف، وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره ومنه أبعد^(١)).

ويقول في موطن آخر: (علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يشمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً. وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يشمر

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: (ص ١٦-١٨).

له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله ﷻ، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح. ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته، توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه. وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها^(١).

ويتحدث في موطن ثالث عن التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى: «الأول والآخر والظاهر والباطن»، فيقول: (والتعبد بهذه الأسماء رتبتان: الرتبة الأولى أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحجاب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه. والمرتبة الثانية من التعبد أن يعامل كل اسم بمقتضاه. فيعامل سبقه

(١) مفتاح دار السعادة: (ص ٥١٠-٥١٣).

تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها، بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه، والتوكل على غيره... ثم تتعبد له باسمه الآخر بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى يُنتهى إليه. وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر. وأما التعبد باسمه الباطن فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبدو السرائر، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك، فإنه عنده علانية، وأصلح له غيبك، فإنه عنده شهادة، وزك له باطنك، فإنه عنده ظاهر^(١).

ويقول العز بن عبد السلام: (فهم معاني أسماء الله ﷻ وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات)^(٢).

(١) طريق المهجرتين: (ص ٢٥، ٢٦).

(٢) شجرة المعارف: (ص ١).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: (إن الإيمان بأسماء الله الحسنی ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان ورؤُوحه، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه)^(١).

واختم هذه الوسيلة من وسائل إصلاح السيرة ببعض النماذج من سيرة السلف الصالح، الذين عرفوا أسماء الله وَعَلَيْهِ، وتعبدوا لله تعالى بها، وظهرت آثارها في إصلاح بواطنهم وظواهرهم.

لما حضر معاذ بن جبل رضي الله عنه الموت، قال: (انظروا أصبحنا؟ فأني فقيل: لم تصبح. فقال: انظروا أصبحنا؟ فأني فقيل له: لم تصبح. حتى أتني بعض ذلك. فقيل: قد أصبحت: قال أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت مرحباً، زائر مغيب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظماً لهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر)^(٢).

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (باختصار): (ص ٤١).

(٢) حلية الأولياء: (١/ ٢٣٩).

عاد حماد بن سلمة سفيان الثوري، فقال سفيان: (يا أبا سلمة، أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي، لا اخترت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي)^(١).

قال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظمي فقال: (لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت)^(٢).

وقال ابن خبيق: قال لي حذيفة المرعشي: إنما هي أربعة. عيناك ولسانك وهواك وقلبك. فانظر عينيك لا تنظر بهما إلى ما لا يحل لك، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا دغل على أحد من المسلمين، وانظر إلى هواك لا تهوى شيئاً يسخط الله ويعجل فما لم تكن فيك هذه الأربع الخصال، فالرماد على رأسك)^(٣).

وعن حاتم الأصم قال: (تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذا ذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذا ذكر سمع الله منك، وإذا سكت فاذا ذكر علم الله فيك)^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء: (٧/ ٤٤٩).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٨).

(٣) صفوة الصفوة: (٤/ ٢٦٨).

(٤) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٤٨٦).

قال الخطيب: (أنبأنا الجوهري، أنبأنا المرزباني، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى حدثنا أبو العيناء قال: لما حج المهدي دخل مسجد رسول ﷺ فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي^(١).

وقال إبراهيم بن الأشعث: (ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى، حتى يرحمه من بحضرته)^(٢).

وعن معمر عن أيوب عن نافع أو غيره: أن رجلاً قال لابن عمر رضي الله عنهما: (يا خير الناس أو ابن خير الناس. فقال: ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس، ولكنني عبد من عباد الله، أرجو الله وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه)^(٣).

(١) المرجع السابق: (١٤٣/٧).

(٢) حلية الأولياء: (٨٤/٨).

(٣) سير أعلام النبلاء: (٢٣٦/٣).

الوسيلة الثالثة:

قصر الأمل والزهد في الدنيا والتذكر الدائم للموت
ولليوم الآخر، والاستعداد للقاء الله ﷻ، ذلك لأن من أعظم
ما يكدر القلوب ويفسد السرائر الركون إلى الدنيا، والغفلة
عن الآخرة، لأن القلب عندما يمتلأ بحب الدنيا وإيثارها
على الآخرة لا تجد المواعظ إليه سبيلاً، بل تتوارد عليه الآفات
والأمراض حتى تكدره، ويصبح مظلماً، لا يعرف معروفاً،
لا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه. قد أصبحت الدنيا
همه، يحسد عليها، ويحقد، ويشح ويبخل، ويحب ويبغض،
ويفرح ويحزن من أجلها، وكفى بذلك مرضاً وهلاكاً للقلب
وإفساداً للسريرة. والعكس من ذلك حينما يمتلأ القلب
بذكر الموت وما بعده من أمور الآخرة، ويتجافى عن الدنيا
وزينتها الفانية، فإن القلب يصفو ويستنير، والسريرة تصلح،
وتثمر لصاحبها الثمار اليانعة في الدنيا والآخرة.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (من أكثر ذكر الموت قل فرحه
وقل حسده)^(١). ولكن كيف يتم للعبد زهده في الدنيا

(١) حلية الأولياء: (١/١١٧).

وإقباله على الآخرة؟ يجيب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على ذلك، فيقول: (لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبتها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها، وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا، فهي كما قال ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة ومضمحلة. فإذا تم له هذان النظيران أثر ما يقتضي العقل إشارته وزهد فيما يقتضي الزهد فيه^(١).

ويقول أيضاً: (فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت

(١) الفوائد: (ص ١٧٧).

قلبه إلى ربه تعالى، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته. واستحدث همّة أخرى وعلوماً آخر، وولد ولادةً أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار، بعد أن كان في بطن أمّه، فيولد قلبه ولادةً حقيقية، كما ولد جسمه حقيقة. وكما كان بطن أمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار، فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخرج قلبه عن نفسه بارزاً إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلى هذه الدار. وهذا معنى ما يذكر عن المسيح ﷺ أنه قال: «يا بني إسرائيل، إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرّتين».

ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها - فضلاً عن أن يصدقوا بها - فيقول القائل: كيف يولد الرجل الكبير أم كيف يولد القلب؟! لم يكن لهم إليها همّة ولا عزيمة، إذ كيف يعزم على الشيء من لا يعرفه ولا يصدّقه؟ ولكن إذا كُشِفَ حجاب الغفلة عن القلب صدّق بذلك، وعلم أنّه لم يولد قلبه بعد.

والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى

الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح. فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم، لا إله غيره ولا رب سواه^(١).

ويتحدث في موطن ثالث عن قصر الأمل ودوره في الزهد في الدنيا وصلاح القلوب، فيقول رحمه الله تعالى: (فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معافاة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمرّ السحاب، ومبادرة طيّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدًا من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنه قد ترحلت مُدْبِرَة، ولم يبق منها إلا ضبابة كصباة الإناء، يتصاّبها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمس على رءوس الجبال،

(١) طريق المهجرتين: (١/ ٣٨١)، دار عالم الفوائد.

ويرى بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء
أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه
يتلقاه، فكل منها يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ
مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وقوله تعالى:
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ
بَيْنَهُمْ ﴿٢٠٨﴾﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
عَشِيرَةً أَوْ ضُحًى ﴿٢٠٩﴾﴾ [النازعات: ٤٦] (١). أ.هـ

وما أجود شعره رحمه الله تعالى حين قال في ذلك:

والله لم تخرج إلى الدنيا للذة

عيشها أو للحطام الفاني

لكن خرجت لكي تعد الزاد

للأخرى فجئت بأقبح الخسران

أهملت جمع الزاد حتى فات

بل فات الذي أهلك عن ذي الشأن

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٩).

والله لو أن القلوب سليمة

لتقطعت أسفاً من الحرمان^(١)

ومما له علاقة بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة المبادرة في تدارك أوقات العمر النفيسة، والحذر من إهدارها فيما لا ينفع، فضلاً عما يضر، فإن من الآفات التي تضر بالقلب ضياع الأوقات، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (وكل آفة تدخل على العبد فسيبها ضياع الوقت وفساد القلب، وتعود بضياع حظه من الله عز وجل، ونقصان درجته ومنزلته عنده، وقال بعض الشيوخ: احذروا مخالطة من تضيع مخالطته الوقت وتفسد القلب)^(٢).

الوسيلة الرابعة:

مجالسة الصالحين أصحاب السرائر الصالحة، والبعد عن أهل الدنيا وأصحاب القلوب المريضة.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله،

(١) نونية ابن القيم: (٢/ ٥٤٧).

(٢) رسالة من ابن القيم لأحد إخوانه: (ص ٣، ٤)، ت: عبدالله المديفر.

ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر^(١).

وقال أيضاً: (اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله)^(٢).

ومن أنفع المجالس وأصلحها مجالس أهل العلم والتقى لأنه بالعلم الذي لديهم تحرق الشبهات، وبالتقوى والورع وحسن السريرة تحرق الشهوات، وترى فيهم القدوات في خوفهم من الله تعالى، وتعظيمهم له ﷺ ولأوامره ونواهيه، فإذا زالت الشبهات بالعلم، والشهوات بالتقوى صلحت السرائر والقلوب. ومن علامة توفيق الله ﷻ للعبد أن يرزقه أصحاباً صالحين، تذكر رؤيتهم الله ﷻ. ولا يتم الانتفاع بمجالسة الصالحين إلا بمفارقة أصحاب السوء وأصحاب السرائر الفاسدة واعتزالهم، والحذر من كلامهم وكتاباتهم، التي تملأ القلوب بالشبهات والشهوات، ويدخل في ذلك الإكثار من قراءة سير الصالحين الاتقياء والحرص على الاقتداء واللاحاق بهم.

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٩).

(٢) المرجع السابق.

الوسيلة الخامسة:

الإكثار من ذكر الله ﷻ، والأعمال الصالحة، وترك المعاصي.

وعد الله ﷻ عباده الذين يتقربون إليه بفعل ما يؤمرون به، وترك ما ينهون عنه، بالتبثيت والاستقامة على الصراط المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۖ وَإِذَا لَا تَجِدُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتبثيت ومخذول بترك التبثيت، ومادة التبثيت وأصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده. فكل ما كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيثاً).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾، فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق^(١) أ.هـ.

وكما جاء ذلك في الحديث القدسي الصحيح والذي فيه: «... وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...»^(٢) الحديث.

فمن هذا الحديث يتبين أثر الأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل، ولا سيما المخفي منها في حفظ الله ﷻ لعبده المؤمن الذي هذا شأنه، وذلك بحفظ جوارحه وقلبه، فلا تمتد إلى ما يسخط الله تعالى، ومن أفضل الأعمال الصالحة التي لها أثر في إصلاح السرائر كثرة ذكر الله ﷻ في اليوم والليلة، والثناء عليه ﷻ وتحميده وتسبيحه وتمجيده واستغفاره.

(١) بدائع التفسير: (١٧/١).

(٢) البخاري، كتاب الرقاق: (٦٥٠٢).

فذكر الله ﷻ يذيب قسوة القلب ويزيل صداه. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة القلب. قال: أذبه بالذكر^(١).

كما أن في ذلك أكبر العون من الله تعالى لعبده، وحفظه له من الزيغ والانحراف باطناً وظاهراً، فقد جاء في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم....»^(٢) الحديث.

وأفضل الذكر قراءة القرآن وتدبره، حيث إن في ذلك حياة القلوب وصلاحها واطمئنانها.

ومن أسباب صلاح السريرة البعد عن الذنوب والمعاصي، لأن من عقوبات الذنوب مرض القلب وتكدره وفساده، لا سيما إذا تراكمت عليه الذنوب، وحصل الإصرار عليها، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (ومن عقوباتها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه...

(١) الوابل الصيب: (ص ٦٢).

(٢) البخاري، كتاب التوحيد: (٧٤٠٥)، ومسلم: (٢٦٧٥).

فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب ودأؤها، لا دواء لها إلا تركها... ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار - فهو لاء في نعيم، وهو لاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب^(١).

الوسيلة السادسة: محاسبة النفس:

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال الرسول ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله ﷻ»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم

(١) الداء والدواء: (ص ٧٨، ٧٩) باختصار.

(٢) الترمذي، باب الكيس من دان نفسه، وحسنه الترمذي.

في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَ يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] (١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً، وخرجت معه، حتى دخل حائطاً، فسمعته يقول وبينني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: (عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ. والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك) (٢).

وعن الحسن رحمه الله تعالى قال: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته) (٣).

وفي ضوء هذه النصوص والآثار يتبين لنا أهمية محاسبة النفس، وأثر ذلك في إصلاح الأحوال والقلوب، والتخلص من آفاتهما، ومما يفسدها، كما يتبين لنا أن فساد السريرة إنما يحصل بترك المحاسبة والاسترسال مع النفس وهواها.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى عدة مصالح في محاسبة النفس، منها: (الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيوبها مقتها في ذات

(١) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا: (ص ٣٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا: (ص ٣٦).

الله تعالى. وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً... وقال يونس بن عبيد: إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة... ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه شيئاً، وهي قليلة المنفعة جداً^(١).

وهذه أبيات للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يحاسب فيها نفسه، ويزري عليها، وهو من هو علماً وزهداً وإمامة:

(بُنَيَّ أَبِي بَكَر^(٢) كَثِيرَ ذُنُوبِهِ

فَلَيْسَ عَلَى مَنْ نَالَ مِنْ عَرْضِهِ إِثْمٌ

بُنَيَّ أَبِي بَكَرٍ جَهُولَ بِنَفْسِهِ

جَهُولَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنَّى لَهُ الْعِلْمُ

بَنِي أَبِي بَكَرٍ غَدًا مُتَصَدِّراً

يَعْلَمُ عِلْماً وَهُوَ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ

(١) انظر: إغاثة اللفهان: (١/٧٨-٨٠).

(٢) (بني أبي بكر) يقصد ابن القيم نفسه، وأبو بكر كنية والده.

بني أبي بكر غدا متمنياً
 وصال المعالي والذنوب له هم
 بني أبي بكر يروم ترقيا
 إلى جنة المأوى وليس له عزم
 بني أبي بكر يرى الغرم في الذي
 يزول ويفنى والذي تركه الغنم
 بني أبي بكر لقد خاب سعيه
 إذا لم يكن في الصالحات له سهم
 بني أبي بكر كما قال ربه
 هلوع كنود وصفه الجهل والظلم
 بني أبي بكر وأمثاله غدوا
 بفتواهم هذي الخليفة تأثم
 وليس لهم في العلم باع ولا التقى
 ولا الزهد والدنيا لديهم هي الهمة
 فوالله لو أن الصحابة شاهدوا
 أفاضلهم قالوا هم الصم والبكم^(١)

(١) الوافي بالوفيات: (١/ ٢٦١).

وهذا هو ابن الجوزي رحمه الله تعالى يحاسب نفسه، فيقول:
(تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب،
ووزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللطف الرباني، من بدء الطفولة
وإلى الآن، أرى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً عما
يوجب عقوبة، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان.

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها هلكت
سريعاً، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت، ولا يعتقد
معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، حتى يظن في ما
يظن في الفساق، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي، وقعت
بتأويلات فاسدة، فصرت إذا دعوت أقول: اللهم بحمدك
وسترك عليّ اغفر لي، ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما
وجدته كما ينبغي، ثم أنا أتقاضى منه مراداتي، ولا أتقاضى
نفسي بصبر على مكروه، ولا بشكر على نعمة، فأخذت أنوح
على تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من
غير تحقيق عمل به.

وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر وما
حصل المقصود، فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما

نحت، فأعجبني نياحته فكتبتها ها هنا، قال لنفسه: يا رعاء
تقومين الألفاظ ليقال: مناظر. وثمره هذا أن يقال: يا مناظر،
كما يقال للمصارع الفاره. ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند
العقلاء، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً
اسم المناظر، ثم ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب!
هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شاب أفره منك
فموهوا له وصار الاسم له. والعقلاء عن الله تشاغلوا بما
- إذا انطوا - نشرهم وهو العمل بالعلم، والنظر الخالص
لنفوسهم. أف لنفسي، وقد سطرت عدة مجلدات في فنون
العلوم وما عبق بها فضيلة، إن نُظِرَتْ شَمَخَتْ، وإن
نُوصِحَتْ تَعَجَّرَتْ، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران
الرخم، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف، فليتها
أخذت أخذ المضطر من الميتة. توفر في المخالطة عيوباً تبلى،
ولا تحتشم نظر الحق إليها. وإن انكسر لها غرض تضجرت،
فإن امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم.

أف والله مني، اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها، والله
إن تنن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي

وأنا بين الأصحاب، والله إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني، كيف سترني وأنا أتهتك، ويجمعني وأنا أتشت؟! وغداً يقال: مات الخبر العالم الصالح، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني، والله لأنادين على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء، ولأنوح نوح الثاكليين إذ لا نائح لي ينوح عليّ لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها، وغطاها من علمها.

والله ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهم اغفر لي كذا بكذا. والله ما التفت قط إلا وجدت منه ﷺ براً يكفيني ووقاية تحميني مع تسلط الأعداء، ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها. هذا فعله معي وهو رب غني عني، وهذا فعلی وأنا عبد فقير إليه، ولا عذر لي، فأقول: ما دريت أو سهوت. والله لقد خلقتني خلقاً صحيحاً سليماً، ونور قلبي بالفطنة، حتى إن الغائبات، والمكتومات تنكشف لفهمي.

فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا، واحرماني لمقامات الرجال الفطناء، يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله، وشماتة العدو بي، واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت

الجوارح عليّ، واخذلاني عند إقامة الحجة، سخر والله مني الشيطان، وأنا الفطن. اللهم توبة خالصة من هذه الأقدار، ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار، وقد جئتكَ بعد الخمسين، وأنا من خَلِقِ المتاع، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم، فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي^(١) أ.هـ.

ومما يعين على المحاسبة أن يخصص المرء لنفسه أوقات يخلو فيها بنفسه، ويناجي فيها ربه وَعَلَيْكَ ويقلل فيها من الخلطة بالناس، ومن أفضل هذه الأوقات ما بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وما قبل صلاة المغرب حتى تغرب الشمس، وشيء من الدلجة في آخر الليل. وقد جاء في فضل هذه الأوقات وذكر الله فيها أحاديث، من أشهرها قوله ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة»^(٢)، والغدوة أول النهار، والروحة آخره، والدلجة آخر الليل.

(١) صيد الخاطر: (ص ٤٦٤).

(٢) البخاري: (٣٩)، ومسلم: (٢٨١٦).

ومن أفضل أوقات الخلوة والمحاسبة اعتكاف العشر الأواخر من رمضان ففيها تتحقق المحاسبة، وفوائد أخرى تصلح بها القلوب وتتنقى بها السرائر، ومن هذه الفوائد:

■ التفرغ للنفس ومحاسبتها، وتفقد أخطائها ومثالبها ومعاصيها في ماضي حياتها، وأثر ذلك في صدق التوبة، وتطامن النفس وتواضعها، وذلك عندما يعلم المحاسب لنفسه أنها كلها عورة وضعف وخطيئة.

■ الشعور الشديد بالفاقة والفقر إلى الله ﷻ، والضرورة القصوى لعونه ﷻ وإغاثنه وتوفيقه، والشعور بضعف النفس وخطر الاعتماد عليها.

■ فراغ القلب في الاعتكاف من مشاغل الدنيا ومشكلاتها، وأثر ذلك في ملء القلب بذكر الله ﷻ، والإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور.

■ الحياة مع كلام الله ﷻ والعيش مع كتابه العزيز، وما يحوي من ذكر للآخرة وما فيها، وذكر أنبيائه وأوليائه، وأثر ذلك في محبتهم والشوق إلى مصاحبتهم والتأسي بهم، وبما أصابهم في سبيل الله ﷻ، وكيف صبروا وصابروا مع

ما في القرآن من ذكر الله ﷻ وأسمائه وصفاته، والأجر العظيم في تلاوته والقيام به، آناء الليل وأطراف النهار.

■ الانقطاع عن الناس وقلة الاتصال بهم وبكلامهم، وأثر ذلك في صفاء القلب وتقبله للمواعظ والزواج، مع ما في ذلك من ترك لآفات اللسان التي قل من يسلم منها.

■ في الاعتكاف نقلة من حياة الترف مع الأهل والأولاد في المساكن المترفة والفرش الناعمة إلى حياة الاعتزال والمسكنة والفراش الخشن والأكل القليل، وهذا بدوره يؤثر في حياة المعتكف ونظرته للدين، مع ما يصاحب ذلك من النوم القليل، فكل ذلك يؤدي بإذن الله تعالى إلى تقوية العزيمة وتنشيط النفس، لأن النفس تثقل مع كثرة الفضول من الطعام والنوم والكلام والخلطة.

■ في الاعتكاف فرص للاستزادة من الصالحات: كנוافل الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، لوجود التفرغ التام.

■ في الاعتكاف وحبس النفس في مكان معين مجال لتربية النفس على الصبر والمصابرة، واكتشاف قوة التحمل، والصبر عند النفس، وفي هذا ترويض للنفس وتوطئة لها

على النقلات المفاجئة - نسأل الله ﷻ العافية والثبات -
كما أن في ذلك تذكراً للصلحاء المبتلين، الذين يمضون
في معتقلاتهم الأشهر والسنوات، فيتوجه بالدعاء لهم
بالتثبيت وسؤال الفرج لهم.

■ كما أن في جلوس المعتكف في خلوته ورؤيته نفسه وحيداً
بعد أن ينفص الناس ويرجعوا إلى بيوتهم، إن في ذلك
أثراً بالغاً في تذكر ذلك اليوم، الذي يوضع فيه العبد في
قبره وحيداً فريداً، بعد أن يرجع عنه مشيعوه إلى أهلهم
وبيوتهم، وهذا له أثر في تذكر الموت والقبر ووحشته، مما
يعود بالفائدة على النفس بالاستعداد لهذا المصراع، وسؤال
الله ﷻ حسن الخاتمة، وهذا كله يربي على الزهد في الدنيا،
وأنها ظل زائل ومتاع الغرور.

■ في الانقطاع عن الأهل والأولاد في المعتكف مع الشوق
إليهم، تذكير بالموت والانقطاع الطويل عنهم، وهذا بدوره
ينعكس على بذل الجهد في إصلاح النفس والأهل، لعل
الله ﷻ أن يجمع الشمل في جنات النعيم، التي لا ينفد
نعيمها ولا يفترق أهلها.

■ في الاعتكاف تعود على أعمال فاضلة، يحصل فيها التفريط غالباً عند الكثير: كأداء السنن الرواتب، والصف الأول، والطمأنينة في الصلاة، وأداء الأذكار جميعها، وذلك لعدم المشاغل والمشكلات التي تصرف المصلي عن هذه الفضائل أو بعضها، ولعلها أن تكون ديدنه بعد الخروج من المعتكف.

■ في الاعتكاف يحصل محاسبة النفس في علاقتها بالخلق وحقوقهم، بداية من الوالدين والأقارب والتقصير الحاصل نحوهم، وكذلك حقوق الآخرين، وما يحمل في القلب نحوهم، هل هو النصيح والمحبة أم الغش والحقْد والحسد. وأكتفي بهذا القدر من منافع الاعتكاف، ذكرته هنا بمناسبة الحديث عن محاسبة النفس.

الوسيلة السابعة: الدعوة إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله:

إن في ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لتزكية النفوس ومحاسبتها وتفقدتها، حتى لا تقع في التناقض والاضطراب، ذلك أن الداعية إلى الله ﷻ وهو يدعو الناس إلى الخير وينهاهم عن الشر يبدأ

بنفسه وإصلاحها، حتى لا يكون من الذين يأمررون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهذا باب من أبواب النفاق، وبذلك يسعى الداعية لإصلاح باطنه، ليكون متوافقاً مع ظاهره، وفي هذا إصلاح للسريرة، وكذلك الحال في الجهاد في سبيل الله ﷻ، فصالح السرائر فيه أعظم وأكثر، إذ إن المجاهد قد عقد العزم على بيع نفسه لله ﷻ، ولا يصح البيع إلا ببقاء السريرة وإخلاص الجهاد لله ﷻ، ففي الجهاد تربية على الإخلاص، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، واليقين وصدق التوكل على الله ﷻ، والخوف منه وحده، وهذه كلها من مقومات وموجبات السريرة الصالحة. ولا تبلغ هذا الأعمال القلبية ذروتها في النفس إلا في ذروة سنام هذا الدين، ألا وهو الجهاد في سبيل الله ﷻ.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وفي الجهاد أيضاً حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية... وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود)^(١).

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/٤٤٢).

وقال أيضاً: (ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم
سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة كما في قوله:
﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾، وفيه
سنام التوكل وسنام الصبر فإن المجاهد أحوج الناس إلى
الصبر والتوكل)^(١).



(١) المرجع السابق.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات،
والشكر له ﷺ على توفيقه وامتنانه بالفراغ من الكتابة في
هذا الموضوع المهم، والذي يتعلق بالقلوب وصلاحها، أسأل
الله ﷻ أن يجعله خالصاً لوجهه نافعاً لعباده، كما أسأل الله ﷻ
أن يرزقني وإخواني المسلمين صلاح السريرة والعلانية، وأن
يختم لنا برضوانه وجنته، إنه سميع قريب مجيب. وقد تطرقت
في هذا الموضوع إلى أهميته وأهمية العناية بشأن البواطن
والسرائر، وذكرت ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث
والآثار، كما ذكرت فيه ما عَنَّ في خاطر من علامات السريرة
الصالحة، وبعض ثمارها في الدنيا والآخرة، كما ذكرت فيه
بعض الأسباب والوسائل المعينة على إصلاح السرائر.
وفي ختام هذه الدراسة أود ذكر بعض التنبيهات المتعلقة
بإصلاح السريرة، ينبغي التنويه عليها:

التنبيه الأول:

الحذر من اليأس في إصلاح السريرة، ولا سيما حينما
يحاسب الواحد منا نفسه ويفتش في قلبه، فيجد من الآفات

ما قد يدخل من خلالها الشيطان، فيخيل للإنسان استحالة الإصلاح، فيحصل اليأس والبقاء على سوء الحال، بل قد تزيد وتتفاقم الأمراض لعدم علاجها والسعي في التخلص منها، وهذا ما يريده الشيطان، فينبغي الحذر من هذا الأمر، وسد هذا الباب على الشيطان، والاستغاثة بالله ﷻ في إصلاح الباطن والظاهر، ومن يصدق الله ﷻ يصدق الله جل وعلا.

التنبيه الثاني:

إن العناية بالسرائر والبواطن لا يعني أبداً إهمال الأعمال الظاهرة وأعمال الجوارح، لأن الظاهر دليل على الباطن، فإذا صلح الباطن صلح الظاهر، وإصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن في الغالب، والإيمان قول وعمل، قول القلب وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح. وقد مر بنا في مبحث أسباب صلاح السرائر: أثر الأعمال الصالحة الظاهرة في إصلاح القلوب وتركية النفوس.

التنبيه الثالث:

الحذر من الغلو والوسوسة في اتهام النفس ومقتها وذمها، وذكر آفات القلوب وإعلام الناس بها، بقصد الإضرار

على النفس وبيان حقيقتها، وأنها ليست كما يظن به الظانون من الخير. فالعبد يحمده على الستر، ويستعين بالله وَعَلَىٰ في إصلاح سريره، وشأنه كله، ولا يدعي ما ليس فيه.

وفصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى المذموم من هذا الأمر والممدوح، فيقول: (سئل الحارث بن أسد عن علامات الصادق؟ فقال: أن لا يبالي أن يخرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على اليسير من عمله).

وهذا يحمده في حال، ويذم في حال، ويحسن من رجل، ويقبح من آخر. فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهاره، ولا نقص عليه فيه، ولا ذم من الله ورسوله، ليكتم به حاله وعمله، كما إذا أظهر الغنى وكتم الفقر والفاقة، وأظهر الصحة وكتم المرض، وأظهر النعمة وكتم البلية. فهذا كله من كنوز الستر، وله في القلب تأثير عجيب يعرفه من ذاقه. وشكى رجل إلى الأحنف بن قيس شكاة، فقال: يا ابن أخي، قد ذهب ضوء بصري من عشرين سنة، فما أخبرت به أحداً.

وأما الحال التي يُذمُّ فيها: فأن يظهر ما لا يجوز إظهاره، ليسيء به الناس الظن، فلا يعظموه. كما يذكر عن بعضهم:

أنه دخل الحمام، ثم خرج وسرق ثياب رجل، ومشى رويداً. حتى أدركوه فأخذوها منه وسبوه. فهذا حرام لا يحل تعاطيه، ويقبح أيضاً من المتبوع المقتدى به ذلك. بل وما هو دونه، لأنه يغر الناس، ويوقعهم في التآسي بما يظهره من سوء.

فالملامية نوعان: ممدوحون أبرار، ومذمومون جهال. وإن كانوا في خفارة صدقهم. فالأولون: الذين لا يبالون بلوم اللوم في ذات الله، والقيام بأمره، والدعوة إليه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، فأحب الناس إلى الله: من لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تأخذه في الله لومة لائم.

والنوع الثاني المذموم: هو الذي يظهر ما يلام عليه شرعاً من محرم أو مكروه. ليكتم بذلك حاله. وقد قال النبي: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلل نفسه»^(١)^(٢).

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٧٢١)، والترمذي: (٦٧).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ١٧٨، ١٧٩)، (لا ينبغي للمؤمن أن يذلل نفسه)، صححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٢٥٤)، وفي صحيح الجامع: (٧٧٩٧).

التنبيه الرابع:

الحذر من الحكم على بواطن الناس من بعض أفعالهم وأقوالهم الظاهرة فإن ما في القلوب والسرائر لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقد يكون في قلب رجل من الصلاح والخير ما لا يعلمه الناس ولكن الله يعلمه، ونحن لم نؤمن أن نشق عن قلوب الناس إلا إذا ظهرت قرينة لا تحمل اللبس من قول أو فعل يدل على فساد في الباطن. ولذا ينبغي للعبد أن لا يرى له فضل على أحد من المسلمين المستورين في أحوالهم، بمجرد أن يرى الإنسان من نفسه فضلاً في عبادة أو عمل صالح، فقد يكون عند المفضول خبيثة من عمل صالح لا يعلمها إلا الله ﷻ، وقد لا يكون عنده كثير عبادة ونوافل ولكن قام في قلبه من الإخلاص والإخبات واليقين والمحبة والخوف والرجاء ما ليس عند الفاضل، فيكون بذلك أقرب إلى الله ﷻ ممن فاقه كثرة في الأعمال، والمقصود أن يطامن العبد من نفسه ولا يحتقر غيره، فالعبرة بما في القلوب، وهذا لا يعلمه إلا علام الغيوب.

التنبيه الخامس:

تركز الحديث في هذه الدراسة على السرائر عند الأفراد، وهذا هو مقصد هذه الدراسة، ولكن يحسن التنبيه في هذه

الخاتمة إلى السرائر في إطار الدول والمؤسسات والطوائف والملل. فكمن من الدول والطوائف لها ظاهر وباطن ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب، ولا سيما في واقعنا المعاصر، عصر اللبس والتضليل، حيث يبدي فيه أصحاب السياسات والملل الباطنة للناس ما لا يخفون من النفاق وخبث الطوية والعقائد الفاسدة، ولكن يأبى الله عز وجل إلا أن يفضح سرائرهم، ويبدي للناس خبث بواطنهم وكذبهم وتدجيلهم، بما يظهره ﷺ على فلتات ألسنتهم ومواقفهم، بما يقدره من أحداث وابتلاءات وفتن، يتميز فيها الخبيث من الطيب.

ومن أبرز هذه الطوائف الباطنية رافضة العصر المحترقين حقداً على المسلمين الموحدين، فإن من أصول مذهبهم التقية، وهي تعني أن يخفوا عقائدهم الباطنة ويظهروا خلافها، خداعاً للمسلمين، فأبى الله ﷻ إلا أن يفضحهم، ويكشف حقيقتهم وعقائدهم الباطنة للناس، وذلك بما قدره ﷺ من أحداث وابتلاءات موجعة على أهل السنة في بلاد الشام وغيرها حيث كشفوا عن أقنعتهم، وظهر مشروعه الباطني في المنطقة، حيث تحالف رافضة إيران والعراق وحزب الشيطان في لبنان مع النصيرية لحرب أهل

السنة وإقامة دولتهم الباطنية في المنطقة. وهذا من الحكم البالغة التي يحمد الله ﷻ عليها في هذه الأحداث حيث زال اللبس عن المخدوعين بتقية الروافض وفي هذا خير عظيم. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

والمقصود التنبيه إلى سرائر وأسرار الدول والطوائف والمؤسسات التي تبطن ما لا تظهر، والتنبيه إلى خطرها والحذر من خداعها، ففساد السرائر عند الطوائف والهيئات الاجتماعية أخطر بكثير من فسادها على مستوى الأفراد، لأن فساد الطوية عند الفرد يكون في الغالب على نفسه، أما فساد الدول والطوائف فيتعدى إلى الأمة بأسرها.

التنبيه السادس:

أوجه في هذا التنبيه نصيحة إلى نفسي وإخواني الدعاة والمجاهدين في سبيل الله تعالى: بأن نعتني بإصلاح سرائرنا، وتفقدنا بين حين وآخر، والمصارعة إلى إصلاح ما فسد منها، وأن لا نجعل خلافنا في وجهات النظر سبباً في الفرقة والشحناء فإن في هذا دليلاً على فساد في السرائر، وهذا باب من أبواب الشيطان، وآفة من آفات القلوب، ولا سيما بين أصحاب المنهج الواحد، وقدوتنا في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ

وسلف الأمة الصالح، حيث اختلفوا في بعض المسائل ولم يتفرقوا، بل بقيت المحبة والألفة والاجتماع بينهم، متعاونين على البر والتقوى.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الاستقامة: (أن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد)^(١)، والبغي آفة من آفات القلب، وعلامة على فساد في السريرة. قال يونس الصدي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة)^(٢).

هذا إذا كان الخلاف بين أهل الحق والعقيدة الصحيحة، أما إذا كان الخلاف مع ملل الكفر والبدع المغلظة فهو متعين وممدوح، وكذلك ما يترتب عليه من المنابذة لهم والافتراق معهم.

وبعد...

فهذا ما من الله ﷻ به ويسره من الكتابة في هذا الموضوع المهم، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، فهو

(١) انظر الاستقامة: (١/ ٣١).

(٢) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ١٦).

المان بذلك والموفق له، وما كان فيه من خطأ فمني ومن
الشيطان، وأستغفر الله وَعَلَى منه، والحمد لله رب العالمين،
وصلّى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله
وصحبه أجمعين.

في يوم الاثنين ٦/١٢/١٤٣٣هـ

